وخُص بالمزيد والاستبشار، فى قوله عز وجل فلما حضروه قالوا أنصتوا، فلماقضى ولّوا إلى قومهم منذرين، وفى قوله عز وجل فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون. ويكون من نعت من مَدَحَهُ بالعلم وأثنى عليه بالرجاء ووصفه بالخوف في قوله تعالى يحذر الآخرة و يرجو رحمة ربه، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون. وقال عز وجل يدعون ربهم خوفا وطمعا، فكان هذا من أهل اللّه وخاصته، ومن محبيه وخالصته، كما روينا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أهل القرآن أهل اللّه وخاصته من خلْقه. وقال ابن مسعود من كان يحب القرآن فهو يحب اللّه، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب اللّه. وهذا كما قال لأنك إذا أحببت متكلماً أحببت كلامه، وإذا كرهته كرهت مقاله. وقال أبو محمد سهل: من علامة الإيمان حب اللّه عز وجل، ومن علامة حب اللّه حب القرآن، ومن علامة حب القرآن حب النبى صلى اللّه عليه وسلم، وعلامة حب النبي صلى اللّه عليه وسلم اتّباعه، وعلامة اتّباعه الزهد فى الدنيا. وحدثونا عن بعض المريدين قال كنت فى جدة إرادتى قد لهجت بتلاوة القرآن ثم رهقتنى فترة فبقيت أياماً لا أقرأ، فهتف بى هاتف من قبل اللّه عز وجل إن كنت تحبنى فَلِمَ جفوت كتابى، أما ترى ما فيه من لطيف عتابى وقال بعض العارفين لا يكون المريد مريدا حتى يجد فى القرآن كل ما يريد ويعرف منه النقصان والمزيد ويستغنى بالمولى عن العبيد. وأقل ما قيل فى العلوم التى يحويها القرآن من ظواهر المعانى المجموعة فيه أربعة وعشرون ألف علم وثمانمائة علم، إذ لكل آية علوم أربعة، ظاهر وباطن وحدّ ومطلع . وقد يقال إنه يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتين من علوم، إذ لكل كلمة علم ، وكل علم عن وصف ، فكل كلمة تقتضى صفة، وكل صفة موجبة أفعالاً حسنة ، وغيرها على معانيها، فسبحان الفتّاح العليم.

الفصل الثامن عشر

فيه كتاب ذكر الوصف المكروه من نعت الغافلين

فإذا خالف التالى هذا الوصف الذى شرحناه أو كان على ضد ذلك من السهو والغفلة والعَمَى والحيرة، مُحدّثا لنفسه مُصغيا إلى هواه ووسوسة عدوّه، متوهماً للظنون، عاكفاً على الأمانى، حقّت عليه أن يكون بمعانى ما قال اللّه عز وجل - ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانى، يعنى إلاّ تلاوة القرآن لا غير، وإنْ هم إلا يظنون، فوصفهم بالظن وهو ضد اليقين، كما أخبر عن الظانّين فى قولهم إنْ نظن إلاّ ظنا وما نحن بمستيقنين ، وبمعنى ما قال وكأيِّن من آية

فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون، فالقرآن من أجّل آيات الأرضين والسموات الدالة على فاطرهما ومنزله، وكان بوصف من يهدده بعلمه فيه عند استماعه لكلامه العزيز متهاوناً به مناجياً لغيره أن يقول تعالى - نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هُمْ نجوى، وبمثل من يسمع وقلبه مشغول عن المسموع بما يضره عما ينفعه، حتى إذا خرج عن الكلام سأل من حضر بقلبه ماذا فهم من الخطاب الذى كان هو عنه بغفلته قد غاب، وقد كان حاضراً بجسمه حجة عليه ، فمن ذلك قوله عز وجل ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا، قال الله تعالى أولئك الذين طبع الله على قلوبهم، أى عن فقه الخطاب فلم تسمعه القلوب ولم تعه، واتبعوا أهواءهم يعنى أباطيلهم وظنونهم الكاذبة. ويقال إن العبد إذا تلا القرآن واستقام نظر الله إليه برحمته، فإذا قرأ القرآن وخَلَطَ ناداه الله عزوجل مالك ولكلامى وأنت مُعرض عنى، دع عنك كلامى إنْ لم تتب إلىّ.

وروينا فى الإسرائيليات أوحى الله عز وجل إلى نبيّه موسى وداود عليهما السلام مُرْ عُصاة بنى إسرائيل أن لا يذكرونى فإنى آليت على نفسى أن أذكر من ذكرنى ، وإنى أذكرهم بلعنة. وكان بوصف من أخبر عنه إذ يقول تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عَرَض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا الآية. وهذا وصفهم الظن الكاذب والرجاء المختلف اللذان لم يفترقا إلى خوف وإشفاق، عصوْا خالقهم عاجلا وتمنّوا عليه المغفرة آجلا، جهلاً منهم بحكمته وإعراضاً عن أحكامه. قال الله عز وجل ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه، ثم أخبر عن علمهم بذلك علْمَ قول وخبر لا علم يقين ومعاينة ، قال سبحانه ودرسوا ما فيه أى قرؤا هذا وعلموه ولم يعملوا به فلم ينتفعوا بشىء منه، فكان هذا توبيخا لهم وتقريعا، كقوله تعالى قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين. وفيها وجه غريب. ودرسوا ما فيه أى محوه بترك العمل به والفهم له، من قولك درست الريح الآثار إذا محتها ، وخط دارس وربع دارس إذا مُحى وعفى أثره. وهذا المعنى مواطىء لقوله تعالى نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، واتبعوا ما تتلو الشياطين أى ما تتبع وتهوى. ومواطىء لقوله تعالى فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئسما يشترون، فسمى ترك العمل منهم به فى كل حالة طرحاً له وإلقاءً ونفياً له وبيعاً له، وبالدنيا اشتراه. وكل آية فى التهدد والوعيد فللخائفين منها وعظ وتخويف، وللغافلين عنها وصف وتعريف، عَلِمَه من عَلِمَه، كقوله تعالى فى ذكر النار ذلك يخوف الله به عباده يا عبادى فاتقون. وقال فى خبرها أُعدّت

للكافرين. وقال بعض السلف إن العبد ليفتتح سورة فتصلى عليه الملائكة حتى يفرغ منها، وإنّ العبد ليفتتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها، فقيل وكيف ذلك، قال إذا أحلّ حلالها وحرّم حرامها صلّت عليه، وإلاّ لعنته. وقال بعض العلماء إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم، يقول ألا لعنة الله على الظالمين وهو ظالم، ألاَ لعنة الله على الكاذبين وهو منهم. وقال سفيان فى قوله تعالى سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، قال أصرف عنهم فَهْمَ القرآن. وفى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عظّمت أمتى الدنيا والدرهم نُزِعَ منها هيبة الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حُرِموا بركة الوحى. قال الفضيل حُرِموا فهم القرآن. وفى الأخبار مِنْ ذَمّ قراءة البطّالين أكثر من أن تذكر، فمنها ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أكثر منافقى أمتى قُرّاؤها. وكان الحسن يقول إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل وجعلتم الليل جَمَلا ، فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله، وإنّ من كان قبلكم رأوه رسائل أتتهم من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار. وكان ابن مسعود من قبله يقول أُنزل عليهم القرآن ليعلموا به فاتخذوا دراسته عملا. إنّ أحدهم ليتلو القرآن من فاتحته إلى خاتمته، ما يُسقط منه حرفا وقد أسقط العمل به. وفى حديث بن عمر وحديث جندب لقد عشنا برهة من دهرنا وأحدنا يُؤتَى الإيمان قبل القرآن فتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فنتعلم حلالها وحرامها ، وأمرها وزجرها ، وما ينبغى أن يقف عليه منها كما تعلمون أنتم القرآن، ثم بعد لقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته لا يدرى ما أمره ولا زجره، ولا ما ينبغى أن يقف عنده منه فينثره نثر الدَقَل، وهذا كما قال لأن المراد والمقصود بالقرآن الائتمار لأوامره والانتهاء عن زواجره، إذ حفظ حدوده مفترض ومسؤل عنه العبد ومعاقب عليه ، وليس حفظ حروفه فريضة، ولا عقاب على العبد إذا لم يحفظ ما وسعه منه. قال الله عز وجل إنّا سنلقى عليك قولا ثقيلا، أى العمل به ثقيل وإلاّ فقد يسّره للذكر. ومن ذلك الخبر المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرؤا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ولانت له جلودكم، فإذا اختلفتم فلستم تقرؤنه. وفى بعضها فإذا اختلفتم فقوموا عنه. وحدثنى شيخ فاضل قرأت عليه القرآن على شيخ لى فلما ختمتُ رجعت إليه لأقرأ، فانتهرنى وقال جعلت القرآن علىّ عملا. إذهب فاقرأ على الله عز وجل، فانظر ماذا يسمعك منه ويفهمك عنه.

وقد كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا يحفظ إلاّ الجزء والجزأين،

والسور المعدودة وسورتين، وكان من يحفظ الحزب منه وهو السُبع أو البقرة والأنعام عَلَمًا فيهم. وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عشرين ألف صحابى لم يقرؤا القرآن غير نظر، فلم يحفظ القرآن كله منهم إلاّ ستة اختُلف منهم فى اثنين. وقال بعضهم ولم يكن جمعه من الخلفاء الأربعة أحد. وختم ابن عباس على أبى بن كعب، وقرأ عبد الرحمن بن عوف على ابن عباس، وقرأ عثمان بن عفان على زيد بن ثابت ، وقرأ أهل الصُفّة على أبى هريرة، وكلهم كان متّبعا لأوامره مجتنبا لزواجره. عالما به فقيها فيه. وقال يوسف بن أسباط وقد قيل له إذا ختمت القرآن بأى شىء تدعو، فقال بأى شىء أدعو، أستغفر الله عز وجل مائة مرة من تلاوتى. وكان يقول إنى لأهِمُّ بقراءة القرآن فإذا ذكرت ما فيه خشيت المقت فأعدل إلى التسبيح والاستغفار.

واعلمْ أن للعبد فى قراءة القرآن بحسب ماله من تعظيمه والفهم له والمشاهدة منه والمعاملة به، لأنه من أكبر شعائر الله فى خلقه، وأعظم آياته فى أرضه الدالات عليه، وأسبغ نِعَمِه الكاملة علينا. وللعبد من التعظيم له بقدر تقواه. وله من فهم الخطاب وتعظيم الكلام على نحو ما أُعطى من معرفة المتكلم وهيبته وإجلاله، فإذا عَظُم المتكلم فى قلبه، وكَبُر فى فهمه، أنعم تدبر كلامه، وأطال الفكر فى خطابه، وأكثر ترداده وتكريره على قلبه، وأسرع بذكره عند النازلة به والحاجة إليه، فاتّقى وحذر، ولذلك قال سبحانه واذكروا ما فيه لعلكم تتّقون. وقال كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتّقون، ولعلهم يتذكّرون، لأن كل كلام موقوف على قائله، يعظُم بتعظيمه، ويقع فى القلب بعلو مكانه، أو يهون بسهولة شأنه.

قال الله عز وجل ليس كمثله شىء ، فى العظمة والسلطان، وليس ككلامه كلام فى الإحكام والبيان. وقرأتُ فى سورة الحنين من التوراة – يا عبدى.. أما تستحيى منى – يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت فى الطريق تمشى فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله وتقرؤه وتتدبره حرفا حرفا حتى لا يفوتك شىء منه. وهذا كتابى أنزلته إليك أنظرْ كم وصلتُ لك فيه من القول، وكم كررتُ عليك فيه، فتأملت طوله وعرضه، ثم أنت مُعرِض عنه، أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك؟.. أى عبدى يقعد إليك بعض إخوانك فتُقبل عليه بكل وجهك، وتُصغى إلى حديثه بكل قلبك، فإنْ تكلم متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أومأت إليه أنْ كُفّ، وها أنا ذا مقبل عليك ومحدّث لك، وأنت مُعْرِضٌ بقلبك عنى، فجعلتنى أهون عندك من بعض إخوانك أو كما قال.

وإنما خفّ القيام على أهل الليل لفهم الخطاب، وثَقُلَ على أهل النوم لانفصام القلوب عن

الفقه وشدة الحجاب ، كما قال تعالى ثَقُلتَ فى السموات والأرض، أى خَفِىَ علمها يعنى الساعة ، فثقلت عليهم فسمى ما خفى ثقيلا والله أعلم .

الفصل التاسع عشر

كتاب فيه ذكر الجهر بالقرآن وما فى ذلك من النيات وتفصيل حكم الجهر والإخفات

روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فضلُ قراءة السرّ على قراءة العلانية كفضل صدقة السرّ على صدقة العلانية، وفى لفظ آخر الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمُسِرّ به كالمسِرّ بالصدقة. وفى الخبر العام يفضُـل عمل السر على عمل العلانية بسبعين ضعفا. وفى مثله من العموم خير الرزق ما يكفى وخير الذكر الخفى. وفى الخبر لا يجهر بعضكم على بعض فى القراءة بين المغرب والعشاء. وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن عبد العزيز يجهر بالقرآن فى صلاته، وكان حسن الصوت، فقال لغلامه برد - إذهب إلى هذا المُصلِّى فمره أن يُخفض من صوته ، فقال الغلام إن المسجد ليس لنا وإن للرجل فيه نصيبا، فرفع سعيد صوته فقال يا أيها المُصلِّى إنْ كنت تريد الله عز وجل بصلاتك فاخفض صوتك، وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيأ، قال فسكت عمر وخفف ركعته . فلما سلّم أخذ نعليه وانصرف وهو يومئذ أمير المدينة. وعلى ذلك فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع جماعة من أصحابه يجهرون بالقراءة فى صلاة الليل فيصوّب ذلك لهم ويسمع إليهم . وقد أمر بالجهر فيما روى عنه إذا قام أحدكم من الليل يصلى فليجهر بقراءته فإن الملائكة وعُمّار الدار يستمعون إلى قراءته ويصلون بصلاته . ومرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثلاثة من أصحابه فى الليل مختلفى الأحوال، منهم من كان يُخافت وهو أبو بكر رضى الله عنه، فسأله عن ذلك فقال إن الذى أناجيه هو يسمعنى ، ومنهم من كان يجهر وهو عمر رضى الله عنه فسأله عن ذلك ، فقال أوقظ الوسنان وأزجر الشيطان ، ومنهم من كان يقرأ أياً من هذه السورة ومن هذه السورة وهو بلال ، فسأله عن ذلك فقال أخلط الطيب بالطيب ، فقال كلكم قد أحسن وأصاب، فنقول والله أعلم إن المخافتة بالقراءة أفضل إذا لم تكن للعبد نية فى الجهر، أو كان ذاهباً عن الهمة والمعاملة بذلك ، لأنه أقرب إلى السلامة وأبعد من دخول الآفة . وإن الجهر أفضل لمن كان له نية فى الجهر ومعاملته